الخـــــروج مـــن المعـــتقل بـكفـــالـــــة المـــنفـــى

(٣-٣)

هـــاتف جـنـــابـي

بعد التخرج مقرونا بالعام ١٩٧٢ والأحداث المأساوية المتلاحقة التي أعقبته ، دفع معظمُ أفراد جيلي والجيل اللاحق ضريبة التصحر الفكري والطموحات الفردية للسلطة وحزبها الفريد ، ساعدهم في ذلك سوء تقدير أحزاب المعارضة ، بأفكارها الشمولية وأساليبها ذات الطابع القبلي.
أخذت حياتي منذ العام ١٩٧٣ تتواصل باعتباري شاعرا يعيش على الضفاف ، عند حافات الشعر والحياة ، منذورا لعدم الاستقرار والنسيان أو التناسي الذي لم أكترث له كثيرا. إيمانا مني في حينها بجودة البضاعة أولا وأخيرا ، لا بتسويقها. كان عليّ دفع ضريبة قاسية من التعتيم بشقيه: الرسمي ، والشللي. لم أكنْ أؤمن بفكرة الانضواء تحت الراية الشللية ولا المؤسساتية ، الشيء الذي جعل اختلاطي يتشكل خارج المنابر والصفحات الثقافية ، فنشأتُ شاعرا خارج أعراف التجمعات الأدبية وجو المداهنات والمجاملات المتبادلة عادة في مثل هذه الأوساط والحالات. كنتُ أمرّ على بغداد في أوقات العطل ، قادما من كركوك ، وأنا في طريقي إلى عائلتي في النجف.

ذات جلسة في اتحاد الأدباء العراقيين مع شلة من الشعراء، أنقذني الشاعر عبد الرحمن طهمازي من أحد مخبري الاتحاد المتربصين بزملائهم، بتأويل، لصالحي، لقصيدتي"الحرب- الحلقة المفقودة" المنشورة للتو في مجلة "الموقف الأدبي" السورية في حينها(١٩٧٤). بعدها لم أدخل مقرّ الاتحاد سوى مرتين: الأولى بهدف تقديم قصيدتي"أشعار الأقاليم الجديدة" لنشرها في " الأديب المعاصر"- مجلة الاتحاد، فنشرت، والثانية في ١٩٧٦ للتحدث مع الشاعر شفيق الكمالي رئيسه آنذاك وهاشم الطعان اللذين وجدتهما جالسين وبالقرب منهما الناقد فاضل ثامر. استلموا أوراقي للنظر فيها وتقرير ما إذا كنتُ أصلح لعضوية الاتحاد الذي قبلت فيه في العام ١٩٧٧ أثناء غيابي خارج العراق. بعدها لم أدخل مقرّ الاتحاد ولم أعد لبغداد سوى مرتين كذلك، كان آخرها في شهر آب ١٩٧٦.
وبما أنني لم أعدْ إلى العراق مطلقا، فقد تم على مايبدو طردي من الاتحاد أواخر السبعينيات، ربما مع عدد لابأس به من الزملاء الهاربين. على أنني لم أندم أبدا على ذلك، فلكل شيء ضريبته. خاصة وأنني قبلت بناء على مجموعة، لا غير، من النصوص المنشورة في الصحف والمجلات العراقية والعربية، لأن ديواني المعلن عنه في الصحافة لم ينشر أبدا.
في كركوك الملونة، بسهولها ومرتفعاتها وشعلتها الدائمة وموزائيكيتها الاجتماعية والثقافية وعبقها الخاص، توثقت علاقتي بالأقليات الدينية والأثنية التي اغتنيتُ بفضلها روحيا وصرتُ أدافع عن كينونتها. بفضل كركوك أخذت أعود إلى أحضان الطبيعة التي افتقدتها لسنوات. هناك توثقت علاقتي ببعض الكتاب من أمثال جليل القيسي وجان دمو(نشر في العام ١٩٧٥ في جريدة التآخي جزء من حوار طويل أجراه معي والظاهر أنه قد أضاع القسم الأهم منه!، أنظر تذييل قصيدتي "ذكريات شقة فارغة").
أعادت لي تلك المدينة بعضا من الطقسية الغائبة في بغداد، منحتني قسطا من حرية الحركة لكوني خارج العاصمة، إلا أنها زادت من قلقي الذي اتضح لي فيما بعد بأنه جزء من الحيرة العامة والخوف من المجهول الذي أخذ يعم العراق مثل كابوس وقدر لافكاك منه إلا بالمحق الشامل.
حينئذ، تسربت إلي قاموسي الشعري هواجسُ وهلوسات وكوابيس وأحلامٍ ورؤى، جرى التعبير عنها في شعري، بمفردات وتراكيب وعناوين من قبيل: العزف على الجمجمة، عثرات، خيانات، أشباح، خذلان، المحق، الخراب، الكابوس، التراب، الغبار، الحجر، الحجارة، الجبروت، الغياب، الانسلاخ، مشاعية محبطة، التشظي، الأبالسة، الوباء، المُلاحقة، شيخوخة العشب، مرثية العقل، أنياب السماء، جبل البلوى، حسرة الماء، تلويحة الذئاب، أرصفة مهجورة، رحيل، سيول، المكر، وردة الرمل، مديح المحبة، حذاء الوردة، خطوات الصحراء، الحسك، السراب، السديم، العماء، العمى، المجهول يستحضرك، نشيد العدم، الجحيم، من هنا البحر إنني بانتظاركم، أقنعة، رثاء الطبيعة، أحراش، مستنقعات، ذكرى المعادن، قلاع، ذاكرة الآتي ماضيا، أسمعك ولا تصغي إليّ، استغاثة النخيل، تهدل الكشح الفتي، غضون الطفولة، تلويحة الجبل، المجد للابتسامة، سراب، صداقة القسوة، ياعدوتي المحبوبة، أبوة الجحيم، بسالة الوحشة، تلويحة الأفعى، الأنا المبجلة، احتضار، الطمي، أحلام وأباطيل، وهلمّ جرا. كلها تعابير وكلمات تشير إلى عالم تلقائي، وإيقاع حياتي- اجتماعي- سياسي وثقافي موروث يحتضر.
طفولة ضائعة، جهد مشكوك فيه، تجربة شمولية قاسية ذات عواقب جد وخيمة، مستقبل تعبث به الرياح، منطقة ستشهد ظلامية ماحقة. زعزعة المفاهيم والقيم، ثمت دخول الحقيقة والحق والقانون إلى العالم السفلي، إضافة إلى اندحار مفهوم الشخصية المتفردة وخصوصية الفرد واستسلامهما لقبضة شمولية ماكرة بحق.
في العام ١٩٧٣، بناء على تشجيع من بعض الأصدقاء شعراء ونقادا، قدمت مجموعتي الشعرية الأولى "من هنا البحر إنني بانتظاركم" إلى وزارة الإعلام العراقية لغرض نشرها ضمن سلسلة "كتابات جديدة". فصدرت أخبار في الصحافة تشير إلى قرب صدور "المجموعة الشعرية الأولى للشاعر الشاب الواعد هاتف الجنابي". لكنني وبعد نصف سنة فوجئت برفضها "لأسباب لاعلاقة لها بالجوانب الفنية"، كما ذكر لي عبد الرحمن الربيعي في الوزارة بحضور الكاتب برهان الخطيب القادم من موسكو آنذاك الذي التقيته فيما بعد، مطلع التسعينيات، في مدينة بلومنغتن في الولايات المتحدة الأميركية فأصبحنا أصدقاء.
أثار الموضوعَ متسائلا ومستهجنا حينئذ الشاعر شاكر لعيبي في مقالة مقتضبة له نشرت في إحدى الصحف العراقية. ما زلتُ محتفظا بها في أرشيفي الخاص. بعدها بسنة أخذ مني أحد النقاد العراقيين الأحياء مجموعة شعرية أخرى بعنوان "المحاولة الثالثة" للمساعدة في نشرها، ولم يعرفْ مصيرها حتى اليوم. كان ذلك الحدث بمثابة إنذار مبكر لي بضرورة اتخاذ الحيطة والحذر. على أن من مفارقات القدر، وكما اتضح آجلا، أنه بسبب قلة لقائي المنطقي والمعقول بالوسط الثقافي والأدبي على الخصوص، وعدم انتمائي للحزب الحاكم، قد تكونتْ عني فكرة وانطباع خاطئان وساذجان، بأنني ناشط في صفوف المعارضة مهم وخطير! لحقتني هذه السمعةُ المُضللة إلى منفاي الأوروبي، فاستأنستُ بها لفترة!
لكركوك الفضل الأول في رحيلي في (آب ١٩٧٦) عبر معبر زاخو الحدودي الذي وصلته من بغداد في حافلة كبيرة عند الغبش، خوفا من المطار، بجواز سفر كان يُمنح لمدة أربع سنوات، لكنه اختُصر لي بسنتين فحسب، بحقيبة صغيرة وبعض الكتب وحفنة من الدولارات ودموع أبي الذي ودّعني وكأنه أحسّ بأنني لن أعود سريعا. يبدو أنني كنتُ مراقبا بدقة رغم حذري الشديد وتحركاتي غير المريبة. كانت عيونُ السلطة في كل مكان، بحيث أصبحَ لها قسطٌ لابأس به من أحلامي!
اجلسْ في المقهى ترَ مَن يتلصصُ عليك، اجلسْ في الحانة تجدْ مَن يرفع كأسَه محييا. نديمك القلقُ فالأرقُ:
"مرحبا أيها الأرقُ فرشتْ أُنسَا لكَ الحدقُ
لك منْ عينيَ منطلقٌ إذْ عيونُ الناس تنطبقُ
لك زادَ عنديَ القلقُ واليراعُ النضوُ والورقُ"
(الجواهري، مرحبا أيها الأرق)
اكتشفتُ بعد الخروج من القمقم العراقي ودخولي الأراضي التركية أن علي الشروع بترتيب أوراق حياتي وتبويب فصولها من جديد. غفوتُ طويلا، فأيقضني جاري في أنقرة، استيقظ يا رجل، وكل من فاكهة الترك، تعارفنا وإذا به الكاتب المصري (رؤوف مسعد) الذي جمعتني وإياه الصدفة فصرنا أصدقاء عن بعد. كان رؤوف متجها إلى بولندا فقلتُ له: وأنا سأسافر إليها كمان. ضحكنا وتناقشنا حتى أغلقَ أفواهَنا النومُ. حينما دخلنا بخارست، قال لي: سيسافر إلى بولندا عبر الاتحاد السوفيتي، كانت لديه تأشيرة مرور ولم تكن لي، فذهب معي إلى سفارة الاتحاد السوفيتي طلبا لتأشيرة المرور فرفضوا منحي إياها بعد نقاش عقيم مع القنصل. كانت تلك أول صدمة لي كلفتني عدة أيام إضافية وخسائر لم أكن مستعدا لتحملها. دخلتُ وارسو بالقطار بعد توقف في بلغراد لمدة يومين.
من وارسو بدأتْ رحلة المنفى الحقيقية بقطار من الدرجة الثانية. حصلت فيها على منحة لدراسة الأدب واللغة البولندية ومن ثم التخصص في مجال المسرح. بعد مرور عشر سنوات على إقامتي أخذتُ أكتب باللغة البولندية كذلك، فأصبحتُ عضوا في اتحاد أدبائها ونادي قلمها وأصبحت منغمسا تدريجيا في حياتها الثقافية والأدبية، كتبت وبحثت وترجمت ونشرت وكُرمت، وتعرفت على أسماء شعرية وأدبية بارزة بولندية وعالمية. وحينما دخل اسمي في قواميس الكتاب وأنثولوجيات الشعراء أصبحتُ أكثر غربة من ذي قبل وخوفا من نفسي. شكلت سنوات الثمانيات البولندية تجربة ودرسا بليغا لي. أتذكر، مرة في مستهل انعقاد مهرجان الخريف الشعري العالمي في وارسو منتصف الثمانينات(أحد أكبر مهرجانات الشعر في أوروبا آنذاك)، كيف وقف الشاعر (رسول حمزاتوف) بمعية زوجته دون أن يكترث بهما أحد! اقتربتُ من أحد أصدقائي المنظمين وقلتُ له: أتعرفُ ذلك الشاعرَ الفارع القامة؟ فأجابني: لا، ومنْ يكون؟ قلتُ: مؤلف "داغستان بلدي". للأسف، لم اقرأ هذه الرواية! الظاهر، تمت دعوته على عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أولا وكشاعر ثانيا! شعرت حينها بالخيبة، وانتابني إحساسٌ غريب، بأن شيئا ما سيلوح في الأفق القريب، مغيرا وجه العالم.
في فترة الطفولة والمراهقة كان الخاص طاغيا على العام بحيث جاءت مقولة النفري: "إذا لم يعمل الخاص على أنه خاص هلك" مطابقة لمنطق حياتي. أخذ الخاص يتقهقر بدء من الجامعة وحتى أواسط الثمانينيات تحت وطأة العمل الجماعي وسطوة الأفكار الاشتراكية والدينية والشمولية. الكل: الدين والقبيلة والحزب والأيديولجيا السائدة في السوق، تفوح منها رائحة الشمولية ووجوب خدمة منطق العمومية لا التفرد والخصوصية. عليك أن تبقى جنديا مطيعا ووفيا للجميع، باستثناء ذاتك.
في ١٩٨٦ صدر في وارسو كتيب هام للغاية للشاعر (تشيسواف ميووش) بعنوان: "شهادة الشعر –ست محاضرات عن مواجع قرننا" لفتت انتباهي الفكرة التالية: " عدو الإنسان الحقيقي التعميم". لقد أيقظتْ تلك العبارةُ في نفسي شرهَ العودة إلى الخصوصية، فشرعتُ بمواجهة التعميم باللجوء إلى التكثيف ومتابعة التفاصيل والجزئيات أكثر من ذي قبل. المنفى يبدأ منذ اللحظة التي تُضطَر فيها للمغادرة ويستمر حتى تزول أسبابه. المنفى يمنحك الحرية وسعة النظر وقوة الإرادة، لكنه لن ينقذك من مصير مواطن من الدرجة الثانية، والسفر بقطارات الدرجة الثانية. ولكل قاعدة استثناء!
من أين أنت يا حبيبي؟ أنا من الكوسموس أو الأسكيموس، لا فرق. سؤال يتردد على لسان الأغلبية التي لاتعرفك، يلسعكَ شتاءً ويشويك صيفا. أذكر، حينما كنتُ مدعوا لإحدى الحفلات الطلابية في كامبوس جامعة إنديانا، رقصتُ معي فتاة وسألتني ذات لحظة: من أينَ أنت؟ قلتُ: من بولندا(كان ذلك بعد عاصفة الصحراء)، حدجتني بنظرة ازدراء، وقالت لي: ألستَ عربيا؟! نعم، قلتُ، لكنني قدمت من وارسو لأنني أعيش فيها. فتركتني فورا واختفتْ في زحمة المحتفلين. سألَ عرقي وعراقي فشعرتُ بلزوجة العار تغطي كياني.
في العام ١٩٧٩ وصلتني لأول مرة دعوة للمشاركة في مهرجان شعر الشباب المنعقد في مدينة (غنيزنو) –أول عاصمة لبولندا. كانت الفعالية مهمة للغاية، لأنها جلبت لي علاقات شعرية وأدبية كنتُ بأمس الحاجة إليها. وصلنا إلى مكان المهرجان بحافلة أقلتنا من وارسو. كان جالسا خلفي (بيوتر كونتسيفيتش) وزوجته، كان بيوتر أحدَ أشهر النقاد البولنديين، أصبح فيما بعد رئيسا لاتحاد الأدباء البولنديين. بادرني بأسئلة استفزازية، من قبيل: هل تعرف ماذا يفعل السائحون العرب في وارسو؟ ولماذا دولة صغيرة مثل إسرائيل قد هزمت أمة كاملة؟ وما هو دور العرب في الحضارة الحديثة. قلتُ له: سأجيبك عن السؤال الأخير بسرعة وأقول لك: لاشيء. أما السؤال الأول فهو سخيف لأنه من الضروري أن تسأل عن الطرف المضيف، وهل هؤلاء السواح الفاسدون يلتقون بعاهرات وقوادين وسماسرة من كوكب آخر أم من بولندا ذاتها، وفيما يتعلق بالسؤال الثاني فمن الأفضل أن تقول لي: لماذا هذه الدولة تتحكم بكم أنتم الأقوياء المتحضرون قبل غيركم؟ كانت إجاباتي قاطعة ولكن بأسلوب تغلب عليه الفكاهة. حينئذ، طبطبَ على كتفي ودعاني بعد عودتنا من المهرجان لزيارته في وارسو. كان هذا الناقد هو الذي قدم أمسيتي الشعرية الأولى(١٩٨٠) في نادي(هبردي) الشهير آنذاك والذي سميت حركة شعرية بولندية حداثوية مؤثرة باسمه. وقام بنشر مقدمته فيما بعد مع مجموعة من قصائدي في المجلة الأسبوعية البولندية المعروفة آنئذ(رازم)، مشبها دوري على الصعيد البولندي بدور كونراد البولندي الأصل على الصعيد الإنجليزي، فضحكت لهذه المفارقات العجيبة والحياة الخرافية. مات صديقي مؤخرا وانتهت مرحلة كانت تنتمي إلى أدب وثقافة السنوات المنصرمة: موت النظام السابق حتى أن غالبية المجتمع البولندي لم تعد تتذكره، وماتَ كبار ممثلي تلك الحقبة من الكتاب والفنانين والسياسيين. مَن ينظر إلى الوراء باستمرار يصبه الصداً.
كنت انتظرت العودة إلى العراق حوالي خمس عشرة سنة، بجواز سفر غير صالح، وأوراق مؤقتة تُمدد كل نصف سنة بفضل محاضراتي في جامعة وارسو. لم أطلبِ الإقامة خلالها ولا الجنسية. والآن أشهدُ قربَ نهاية العام الحادي والثلاثين، فلم يعدِ العراقُ لي، ولم أتمكنْ حتى اليوم من هضم كل ماجرى. إنها حجارتي تساقط من فمي.
كانت أمي، بعد موت أخي الأكبر في مهده(لا اسم له)، وأختي الصغرى(أمل)، وأخي الرضيع (عادل)، وأخي (مجمد) المضرج بدمه على الرصيف، قد دأبت على تعليق ثلاث صور في البيت: للمسيح، ومريم العذراء والإمام علي. ولدى تساؤل الفضوليين، كانت تجيب: درءا للحياة!
سمعتُ أنها قد أضافتْ إليها صورة ابنها الذي لم يعدْ من غيبته.
ما هي أخبارك أيها المنفى الخرافي؟ ألمْ نكنْ نديمين وخصمين معا في بولندا والجزائر وأميركا؟
مقاربة ذلك في الفصول اللاحقة.

القـــصـــيـــدة الغـــائـــبـــة

قاسم محمد عبّاس

لستُ متأكداً من أن معنى ما يخلفه هذا العنوان سيعين على تجاوز التناقض المباشر بين القصيدة ككتابة، والغياب بمعناه اليومي والنفسي؛ لأن التفكير بموضوع خذلان الشعراء لمأساتهم لا يشير إلاّ إلى انتكاسة يمرّ بها الشعر العراقي منذ أربع سنوات، فمنذ أن خرج الكثير من الشعراء عن صمتهم بعد التاسع من نيسان٢٠٠٣، وصمت قسمهم الآخر، وافتتحت مئات المطابع، وزال المناخ الاحتفالي للشعر، وانتقل العنف من قوة إلى أخرى، وحصول هزّة كبيرة لا مثيل لها في تاريخ الشعوب، لم يزل المناخ الأدبي في العراق، ولم يزل عالم الشعر هنا ينتظر قصيدة غائبة، ويحيا الشعراء تحت هيمنة صمت إبداعي مفجع، فطالما خلّفت فينا تواريخ قريبة وبعيدة صورا لجنود ودبابات تعبر جسور بغداد، فمنذ عبورها الأول في التاسع من نيسان ٢٠٠٣ وهذه الصور تدفع النقاد والمهووسين بتأثير الشعر والقراء إلى الإيمان بتشكل إطار لحقيقة شعرية قادمة ستمر بارتباكات وتحولات لن تنفصل عن حياتهم سواء كانوا شعراء ام نقاداً ام قراء.
فكرت يوم عبرت تلك الدبابات احد الجسور بالصور التي نقلها التلفاز، حيث بدا الجنود كصورة مطلقة للغزاة وهم يعبرون الكرخ إلى الرصافة، ومن دون إرادة مني أول ما فكرت به هو مصير الشعر، واعترف انني شخصيا كنت أحيا ظرفاً دفعني لتجاهل بقية المصائر إلا مصير الشعر، كأنني كنت أفكر في مواجهة قدر لا يقل أهمية عن إنقاذ بلاد بحجم العراق ذاكرة ووجودا.
ولأنني تجاوزت خطر الكلام عن مصيرنا الجماعي، ألزمت نفسي بأسئلة عن الشعر وغيابه، مآلاته، وجوده أهميته وتأثيره،بوصفه مصيرا لأحلامنا ومخاوفنا ومستقبلاً لأولادنا وهويتنا. وفي رأسي عشرات الصور لشعراء ألمان وفرنسيين وانكليز وروس وغيرهم هؤلاء الذين تعرفت إليهم عبر قصائد كانت تصور جنودا ودبابات تعبر جسور مدنهم وقراهم؛ ولأن الإيمان بفكرة ان فضاء الشعر وحريته يسمح لكل الشعراء، الضالين منهم والكذبة، المهتدين منهم والكسبة وسواهم حتى بكتابة قصيدة ما عن هذا العبور، سواء صفق له أو ندد به، أو بكى على خطوات اختنقت فوق أسفلته، أقول إن هذا الإيمان لن يقود إلا إلى انتظار حلم ما، فانتظرت زمنا آخر هذه القصيدة، أو انني احلم بولادة جيل من هذه القصيدة، أو يقوم شعراء على آثار شعريتها، أو قصائد بحجم ما حدث من عبور فوق جسور ستهدم فيما بعد، فكاتبت قسما منهم، وتلقيت منهم كلمات، لكن القصيدة لم تصل، هل يمكن ان نسميها قصيدة النهر او الجسر المأساويتين، ألا تغوي تلك الجسور الشعراء لكتابة رثاء عابر؟ إلا يغريهم جسر مثل الصرافية للنظر في روح النهر وذاكرته، في الحديد والتاريخ؟ تصل القصائد، قصائد أخرى اعني إلا تلك المنتظرة، انتظر بنفس حالم ان يخرج من أفواه الشعراء هنا، أو شعراء هناك شذرات ثمينة عن جسر قتيل عبره الجنود، عبرته دبابات في ظهيرة ما، انتظر بيأس أحيانا حتى لو تفاصيل من حجر جامد عن جسر مخنوق ببغداد.
أفكر وأنا انتظر بقصيدة عن جسر بغدادي له قيمة رمزية في زمنين مختلفين كل زمان كان الجسر قبرا لعابريه.
انتظر قصيدة تبعد كل الاستمالات التي حدثت منذ سقوط تمثال من حجر في ساحة لا ادري لم سميت بالفردوس، منذ انطفاء عالم وولادة آخر، منذ وقائع جرت في نيسان المشهور، فظهرت صور للشعر منبرية وماتت، وبرزت أصوات تنظم كلاما غريبا وصمتت، وظهر شبان جدد يدعون الشعر وهم بلا قصائد، برزت ظواهر طارئة وامحت، بانتظار صوت ما قصيدة ما تحملنا كل هذا التشويه في اللغة والتفكير، قصيدة ما اسميها بداية لتاريخ من الذبح والموت والقهر والتهجير والحرق والإبادة،لن يبدو هذا النظر حنينا إلى غليان السبعينيات والثمانينيات الشعريين، تلك الغليانات التي خلفت لنا مشاهد من شعر، وأصواتاً وأجيالاً ومدارس قالت ان الشعر ظل الحياة، فلنحلم بالظل الذي سيقودنا إلى الحياة،وتنبأت بقصيدة ما ستبقى غائبة لها القدرة على إقامة حضارة الحياة ومصائرها من بين الحرائق،الحياة التي تأتي من بغداد حتى لو غرقت في الظلام.
الم يكن لكل ذبح قصيدته؟ الم يكن لكل انهيار قصيدته؟ أليس الشعراء جماعة من الملائكة؟ أليس الشعراء بمنأى عن العقم واقرب للغواية؟، قد يشبه هذا الكلام حلما ما بانتظار قصيدة غائبة لا علاقة لها بالملل والطوائف والأديان والأعراق، لا علاقة لها بالمنفى أو بالداخل، ما أفكر به قصيدة ما لم تزل غائبة ستكون حجرا لزاوية آلامنا القادمة، وإذا كنت قد فهمت شيئا عن تاريخ وولادة وتحولات الشعر في العراق، وتلمست بنية الشروط الشعرية والتاريخية التي تقود إلى قدرة الشعر على إعادة الحياة إلى جسر عبره الغزاة، أو لامست أسفلته سرفات الدبابات، سيبدو لي أن انتظار قصيدة أمل، وخلاص، ونهاية، سيبدو لكم ان قصيدة كهذه ستقدم معنى عن الإيمان بالبلاد وبالشعر؛ لأنها ليست قصيدة وحسب وإنما كتاب تضحياتنا ولعنتنا وأرواحنا وظلام حدائقنا، وأجسادنا المدمرة، سيبدو للشعراء إنها بديل عن خوفهم يجيء على شكل قصيدة غابت، ستبدو للقراء انها بديل عن موتنا البائس، ولن يكون مهما من سيكتبها، وليس مهما ان تكون مقاطعها مضرجة بالدم، او بعض صورها ممزقة بالجروح،لن يكون مهما هوية كاتبها، لن تكون صورته او صورتها مهمة؛ لأنها القصيدة الحقيقة الفياضة الصاعقة، الساخرة من الذباحين والقتلة، هي وحدها التي تعلن عن حياتنا وشوارعنا ومتاحفنا، هي وحدها ستصرخ اننا حتى لو ذبحنا وجودا، لن نموت أبداً معرفيا، هل تبدو تكشفات هائمة ظلال انتظار مثل هذا، هل تبدو مبالغة ان نحلم بها، حتى لو تناثر الشعراء أينما كانوا فهم في بيوتهم صامتون، في منافيهم، شعراء عمود كانوا، ام شعراء تفعيلة، ام شعراء قصيدة نثر، مداحين او هجائين، مؤيدين او معارضين، من أي حزب كانوا، من أي عقيدة، فجميعهم مسؤول عن دم هذه القصيدة ودمنا، فهم الشهود على ان الأرض تلد وجودا بعد موتنا هم فحسب المعزون بموت الجسور والأنهار مجازا وحقيقة، انها القصيدة وهم الشعراء هي وهم سابقون في وعينا، كامنون في وجودنا، احلم مع انتظار كهذا ان اصرخ بوجه الشعراء الذين يقترحون استبدال القصيدة بالدموع، او اصرخ في وجه شعراء آخرين يتشفون بأقرانهم، او في وجه اقرانهم الذين يندبون ماضيهم، هل يجدي الصراخ في وجه من يترك البلاد بلا قصيدة، فالحالمون يؤمنون ان الشعراء أبناء كل الأزمنة،أبناء عصيون زرعتهم السماء في ذروة الجمال، فمن منهم لن يعد روحه وحروفه لقصيدة تغيب عن جسر ببغداد عبره الجنود؟
هل يؤمن الشاعر في هذه الأيام الحافلة بالموت الغامض والأقدار العجيبة ان قصيدة واحدة من اجل بغداد، ستكون نشيدا عن نبتة على ضفة النهر، او وروحا مدونة عن طفل ذبيح، او أب قتيل، ذكرى لبيت مهدم، هل يؤمن انه يكتب تاريخا عن جنود ودبابات عبروا الجسر من الكرخ إلى الرصافة.

رســـالـــة الـــدنمـــارك

المكتبـــة الملكيـــة في كـــوبنهـــاغن تحتفي بـــالخـــط العـــربي

حسين السكاف

للكتابة والقراءة قيمة وشأن في الدين الإسلامي، ولذا ينطلق الخط العربي من الرغبة في منح كلمات الله شكلها الأجمل قدر المستطاع. لقد تطور فن الخط والزخرفة والعمارة ليكون فن الخط أحد أهم أشكال الفنون في ثقافة لم تتخذ من فن الرسم والتشكيل أسلوباً للتعبير إلا متأخراً وبتحفظ أيضاً. كان لمكانة الخط الخاصة في الإسلام الأثر الكبير في جعل كل حرف على حدة مقياساً لدلالات مكثفة، ليس في المعنى الظاهر فقط ولكن أيضاً للمعنى الباطن لها. للحروف بركة إذ يمثل كل حرف في اللغة تسبيحاً لله، كما يرى الخطاطون في عملهم هذا تقرباً خاصاً من كل ما هو إلهي.
في تلك السطور يفتتح دليل المعرض صفحاته، دليل أنيق جاء بثلاث لغات عالمية هي العربية والإنجليزية والدنماركية ليشكل مصدراً مهماً للتعريف بالفنانين وأعمالهم المشاركة في المعرض الذي أقيم مؤخراً بالعاصمة الدنماركية كوبنهاجن على إحدى قاعات " الجوهرة السوداء " المكتبة الملكية الدنماركية، احتفاء بفن الخط العربي تحت شعار " صور الكلمة " بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة.
أربعة وعشرون فناناً يعدون من أهم فناني الخط العربي والزخرفة الإسلامية ينتمون إلى ثماني دول، شاركوا باثنين وستين عملاً عدت من أهم الأعمال الفنية التي تمثل بالفعل صوراً للكلمة كما جاء في شعار المعرض،
كان على رأسهم شيخ الخطاطين الفنان والشاعر محمد سعيد الصكار الذي شارك كضيف شرف، حيث عرضت أعماله إلى جانب المقتنيات والنفائس الخاصة بالعرض كما اعتمدت إحدى مخطوطاته لتكون الملصق الخاص بالمعرض، ومعروف عن الفنان الصكار أنه من الخطاطين الرواد الذي دخلت خطوطه عالم الكومبيوتر والتي يستخدمها أغلب مصممي الخط العربي منذ سنوات. وقد ضم المعرض إضافة إلى أعمال الفنانين، مجموعة ضخمة من الأعمال الفنية التاريخية الخاصة بالشرق الأوسط والتي يعود تاريخ أغلبها إلى فترة الحكم العثماني، كان من ضمنها لوحة جاءت حروفها بخط الثلث منقوشة على المرمر، وطبق من الفخار منقوش بكلمات كتبت بالخط الكوفي يعود للقرن العاشر الميلادي.
ثماني دول مشاركة هي العراق الذي كانت له حصة الأسد حيث شارك بتسعة فنانين شاركوا بما يزيد عن سبعة وثلاثين عملاً، ثم دولة الإمارات العربية التي شاركت بثمانية أعمال لأربعة فنانين كان من ضمنهم ثلاث فنانات جاءت أعمالهن بمسحة فنية امتازت بالدقة والإصرار على إيجاد هارموني مؤثر بين اللون والحرف يحتضنها فضاء من الزخرفة الإسلامية رائعة التكوين، وقد أظهرت اللوحات الثلاث للفنانة آمنة يوسف زخرفة جميلة ودقيقة، اعتمدت جميعها جمالية الخط الديواني وزخرفة أنيقة تعكس الفن الإسلامي بجمالية خاصة. أما الفنان الإماراتي الوحيد المشارك، محمد عيسى خلفان فقد شارك بعملين احتويا أبياتاً من الشعر للشاعر سلطان بن علي العويس، نفذهما الفنان بخط الثلث، جاءت إحداها على شكل خارطة دولة الإمارات العربية.
وكان لدولتي مصر وسورية مشاركة بثلاثة فنانين لكل منهما، جاءت مشاركة مصر بسبع لوحات كانت لأعمال الفنان محسن الفضل الذي شارك بثلاثة أعمال وقع خاص لدى المشاهدين من حيث طريقة التنفيذ التي أظهرت مهارة فنية خاصة في مزج الألوان وتقنياتها. وكذا جاءت أعمال الفنان السوري شكري السويدان الذي شارك بثلاث لوحات كانت من ضمن الأعمال الثمانية التي شاركت بها بلاده، وأظهرت إحدى لوحات الفنان سويدان قدرة فنية ملفتة للنظر حيث شكل من الحروف والكلمات لوحة تمثلت بهيئة حصان عربي مكتوب أو مرسوم بأبيات شعرية، جاءت بنسب دقيقة أظهرت رشاقة التكوين.
حظي المعرض باهتمام الجمهور طوال فترة افتتاحه، وكان للشاشة المصاحبة للمعرض وهي تعرض بشكل دوري الفيلم التسجيلي " شاعر القصبة " للمخرج العراقي محمد التوفيق الذي يتحدث عن تجربة الفنان والشاعر، الخطاط محمد سعيد الصكار التي تمتد إلى أكثر من خمسين عاماً، وكذلك بعض الخطوات التعليمية لدراسة تقنيات الخط العربي، أثرها الجميل والمدهش في نفوس الزوار معتمدين على الترجمة الصوتية باللغتين الإنجليزية والدنماركية. وكان لطلبة مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كوبنهاجن وجمهور الفن الدنماركي العريض حضور دؤوب واضح على زيارة المعرض ونهل المتعة عن طريق تأمل روائع الخط العربي.
جاءت مشاركة المملكة المغربية بأعمال فنان واحد كما هي مشاركة جمهورية السودان من خلال الفنان تاج السر حسن، وجمهورية البنغال بعملين للفنان عبد الرحمن مولوي. وأظهرت أعمال الفنان المغربي حكيم الغزالي الذي شارك بعملين ينتميان إلى أسلوب " الديكورتيف " في الفن التشكيلي، احتوت الأولى على عبارة البسملة والثانية على عبارة " هو أهل التقوى " رسمت الأولى بخط الثلث والثانية بالخط الكوفي. أما اليابان فقد شاركت بأربعة أعمال، اثنان للفنان نوريكو ومثلهما للفنانة رابعة أمجد.
المشاركة العراقية كانت تضم سبعة وثلاثين عملاً فنياً تنوع بين توليفة الحرف مع جمالية فن الزخرفة الإسلامية كما في أعمال الفنانين محمد نوري وعلي ندا الدوري وعدنان الشريفي والفنان مصعب شامل، وبين أسلوب " الديكورتيف " كما في أعمال الفنان منذر الدليمي والفنان وسام شوكت متي الذي شارك بثلاثة أعمال تظهر جماليات الخط الكوفي الرشيق. أما مشاركة الفنان العراقي د. صلاح شيرزاد الذي شارك بسبعة أعمال، كانت له أربع لوحات خطت بالحروف واللغة الفارسية، صورت أبيات من قصائد شعرية تطوقها الزخارف الفارسية الدقيقة المنمنمة التي تعود بالمشاهد إلى منمنمات الشاهنامة التي نفذت زمن الشاه طهماسب.
مما لا شك فيه فإن فن الخط العربي والزخرفة الإسلامية يشكلان الوجهين الحقيقين لنشر جماليات وعمق الفن الإسلامي الذي ما انفك يمثل منبع الاستلهام والتأمل ومثار خصب للدهشة في عالم الثقافة والفنون قديماً وحديثاً، ومما لا شك فيه أيضاً أن مثل تلك المعارض يكون من شأنها إضافة فنانين جدد من خارج بلدان الشرق الأوسط إلى هذا المجال المدهش والجميل من مجالات الفن. فلقد منحت الأعمال المشاركة مشاهديها كماً من البهجة والتأمل، حيث تضمنت اشكالاً مأخوذة من الطبيعة وجمالها كتكوينات النباتات والزهور والفواكه والحيوانات، وأعمال أخرى أظهرت تكوينات تشكيلية تمنح الزائر فرصة للتأمل والإبحار من خلال تقنيات اللون وإخراج شكل الحرف عن صورته ومفهومه التقليديين وصلت في بعضها إلى مراحل تجريدية متقنة الحرفة والمعنى.